



الشام كلمة سريانية تعود إلى سام بن نوح الذي استوطن تلك البلاد بعد الطوفان. هذه الأرض تشمل اليوم سوريا (الأصل سيريا أي بلد السريان) و لبنان و فلسطين و الأردن. حكم الساميون الشام منذ عهد نوح إلى اليوم، و عرف عنهم شدة البأس في القتال و حب السفر و سرعة التعلم. و ظلت لغتهم السريانية - بفضل الآراميون و الفينيقيون - اللغة العالمية (أي كإنكليزية اليوم) سبعة عشرة قرون من القرن السابع قبل الميلاد إلى القرن السابع الميلادي، و لا يعرف أية لغة أخرى دامت كل ذاك العهد. و اخترعوا لها أبجدية أصبحت أساس الأبجديات العالم كله. و قد عرف عن أهل الشام تمسكهم الشديد بلغتهم السريانية حتى إذا جاء الإسلام رحبو به بشدة و ساعدوا العرب ضد الروم، ثم أنهم تحولوا جميعاً إلى الإسلام في سنين قليلة و استبدلوا لغتهم السريانية باللغة العربية فسادت اللغة العربية على سائر اللغات الأخرى لعدة قرون. و من المشهور في التاريخ ما كان من الاستقبال الحافل الذي استقبل به أهل الشام عمر و ما كان من أن سموه "الفاروق" و هي كلمة سريانية تعني "المنقذ". لذلك وجد الإسلام بيئته خصبة في تلك المناطق خاصة بالشام حيث بلغت العصبية الإسلامية تحت حكم بنى أمية ذروتها.

و لم يمض 26 سنة على فتح دمشق حتى أصبحت عاصمة الخلافة الإسلامية. و كان أهل الشام أشجع الناس في القتال و من حاز على ولائهم فاز فكانوا سبب سيادةبني أمية فذلك سبب قول علي (رضي الله عنه) لشياعته من الفرس و أهل العراق: "من فاز بكم فاز بالسهم الأخيب" و قوله "و الله! لو ددت لو أني أقدر أن أصرفكم صرف الدينار بالدراهم عشرة منكم بргل من أهل الشام!". و لم ينجو بلد من الفتنة التي تلت مقتل عثمان إلا الشام فكان ذلك قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "ألا و إن الإيمان حين تقع الفتنة بالشام". على أنه لما مات يزيد و رفض ابنه معاوية الثاني أن يستلم الحكم بايعت البلدان عبد الله بن الزبير (رضي الله عنه) حتى إذا مات معاوية و أتى من بعده مروان بن الحكم (رضي الله عنه) لم يبقى من

البلدان أحد لم يبايع ابن الزبير (رضي الله عنه) إلا جزءاً من الشام فالتحق جيش الشام مع جيش يفوقه أضعافاً مضاعفة قرب دمشق فانتصر أهل الشام ولم تمض إلا سنتين قليلة حتى حكموا سائر الأقطار الإسلامية. ثم قاموا بالفتورات العظيمة وامتدت دولتهم من غرب الصين إلى أواسط فرنسا (أي أكبر دولة شهدتها التاريخ حتى ذلك الوقت) دون أن تضعف سيطرة الخلافة في دمشق على الأطراف وظل الإسلام نقياً من الحركات الراغبة في تحريفه على أنه ما إن انهارت الدولة الأموية وبدأت الدولة العباسية حتى عادت العصبية الشعوبية واشتدت وكثرت الحركات الهدامة كالزنادقة والشعوبية والرافضية... إلخ، وضعف الدولة وأخذت تتفتت حتى في زمن الخلفاء الأقواء كالرشيد.

وقد خرج من الشام الكثير من الفقهاء والمحاذين الكبار أمثال عمر بن عبد العزيز والإمام النووي وشيخ الإسلام ابن تيمية والعالمة ابن كثير وكثير من أمثالهم. كما قد وعد الله تعالى وعده الحق بأن طائفة من تلك الأمة باقية على الحق منتصرة في دمشق و القدس حتى مجيء الساعة ويسمون بالأبدال كلما مات منهم أحد أبدل الله بآخر. وأخبرنا الحبيب المصطفى (عليه الصلاة والسلام) أن الخلافة ستعود إلى دمشق وسيحكم المهدى (محمد بن عبد الله) منها ويقود العرب للنصر على الروم في حرب ضروس عظيمة تسمى الملحة الكبرى لم يشهد التاريخ مثلها أبداً. ثم ينزل المسيح (عليه السلام) على المنارة البيضاء شرقي دمشق فيكسر الصليب ويقتل المسيح الدجال (أي مهدي الروافض) ويدعو للإسلام فيؤمن له من في الأرض جميعاً. ولولا فضل الشام في الإسلام لما خصها الله بكل هذا.

و فيما يلي غيضٌ من فيضٍ فيما ورد عن الشام في الآيات والأحاديث الشريفة:

قال أكثر المفسرين في قوله تعالى: {المسجد الأقصى الذي باركنا حوله} أن البركة تشمل بلاد الشام بأكملها بدليل قول رسول الله (ص): "إن الله تعالى بارك ما بين العريش والفرات وفلسطين، وخص فلسطين بالتقديس".
(رواية ابن عساكر)

و قال كثير من المفسرين في قوله تعالى: {و التين و الزيتون و طور سينين و هذا البلد الأمين}؛ التين بلاد الشام (أي سوريا)، و الزيتون بلاد فلسطين (و طور سينين) الذي كلام الله موسى عليه، {و هذا البلد الأمين} مكة.

أما عن الأحاديث النبوية الشريفة فقد روى البخاري
أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمِنِنَا.

و روى مسلم

أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "... إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءَ شَرْقِيَّ دِمْشَقَ بَيْنَ مَهْرُودَيْنِ وَاضْعَافًا كَفَيهُ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكِينِ إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ"

و أغلبظن أن هذه المنارة هي المنارة البيضاء في الجامع الأموي. الحديث يؤكّد على أنّ عاصمة المهدى ستكون في دمشق بإذن الله.

و روى أبو داود

أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ فُسْطَاطَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمُلْحَمَةِ بِالْغَوْطَةِ إِلَى جَانِبِ مَدِينَةِ يُقَالُ لَهَا دِمْشَقُ مِنْ خَيْرِ مَدَائِنِ الشَّامِ. [و الغوطة هي البساتين المحيطة بدمشق]
سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ سَتَكُونُ هِجْرَةُ بَعْدَ هِجْرَةِ فَخِيَارٍ أَهْلِ الْأَرْضِ الْزَمْهُمْ مُهَاجِرٌ إِبْرَاهِيمَ وَيَبْقَى فِي الْأَرْضِ شِرَارٌ أَهْلُهَا تَلْفِظُهُمْ أَرْضُوْهُمْ تَقْدِرُهُمْ نَفْسُ اللَّهِ وَتَحْشِرُهُمْ النَّارُ مَعَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ.

قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ سَيَصِيرُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً جُنُدٌ بِالشَّامِ وَ جُنُدٌ بِالْعَرَاقِ قَالَ أَبْنُ حَوَالَةَ خَرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ فَقَالَ عَلَيْكَ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا خِيرَةُ اللَّهِ مِنْ أَرْضِهِ يَجْتَبِي إِلَيْهَا خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ فَأَمَّا إِنْ أَبْيَتُمْ فَعَيْنِكُمْ وَ اسْفُوا مِنْ عُدُوكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَ أَهْلِهِ.

و روی الترمذی

قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلَا خَيْرٌ فِيهِمْ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ

و عن زيدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ نُؤْلِفُ الْقُرْآنَ مِنْ الرِّقَاعِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ طَوْبٌ لِلشَّامِ فَقُلْنَا لَأَغِيَّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ بِاسْطَةٍ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهَا.

و روی الدارمي

عَنْ أَبِي فَرْوَةَ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سَأَلَ كَعْبَ الْأَحْبَارَ كَيْفَ تَجُدُّ نَعْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فِي النُّورَةِ فَقَالَ كَعْبُ نَجِدُهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يُولُدُ بِمَكَّةَ وَ يُهاجِرُ إِلَى طَابَةَ وَ يَكُونُ مُلْكًا بِالشَّامِ.

و يؤيد ذلك ما أخرجه أحمد عن أبي أمامة قال قلت يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك قال دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام.

و أخرج ابن ماجة و الحاكم و صحده و ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا وقعت الملائم خرج به من الموالى من دمشق هم أكرم العرب فرساً و أجودهم سلاحاً يوئيد الله بهم هذا الدين". و أخرج السيوطي و الطبراني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

عَقْرُ دَارِ الإِسْلَامِ بِالشَّامِ.

و أخرج أحمد في مسنده:

قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلَا خَيْرٌ فِيهِمْ وَ لَا يَزَالُ أَنْاسٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لَا يُبَالُونَ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ. لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ يَرْفَعُ اللَّهُ قُلُوبَ أَقْوَامٍ فَيُقَاتِلُونَهُمْ وَ يَرْزُقُهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ حَتَّى يَأْتِي أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ وَ هُمْ عَلَى ذَلِكَ أَلَا إِنَّ عَقْرَ دَارَ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ وَ الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِبِهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَبْنِ حَوَالَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ قَالَ سَيَكُونُ جُنُدٌ بِالشَّامِ وَ جُنُدٌ بِالْيَمَنِ فَقَالَ رَجُلٌ فَخْرَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ عَلَيْكَ بِالشَّامِ ثَلَاثًا عَلَيْكَ بِالشَّامِ فَمَنْ أَبَى فَلِيَلْحَقُ بِيَمَنِهِ وَ لَيْسُقِّ مِنْ عُدُورِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ لِي بِالشَّامِ وَ أَهْلِهِ قَالَ أَبُو النَّضْرِ مَرَّتَيْنِ فَلِيَلْحَقُ بِيَمَنِهِ. ذُكِرَ أَهْلُ الشَّامِ عِنْدَ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَ هُوَ بِالْعَرَاقِ فَقَالُوا الْعَنْهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ لَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ يَقُولُ الْأَبْدَالُ يَكُونُونَ بِالشَّامِ وَ هُمْ أَرْعَوْنَ رَجُلًا كُلُّمَا مَاتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللَّهُ مَكَانَهُ رَجُلًا يُسْقَى بِهِمْ الْغَيْثُ وَ يُنْتَصَرُ بِهِمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ وَ يُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الشَّامِ بِهِمْ الْعَذَابُ.

و في سند هذا الحديث ضعف. وقد سألت عنه محدث الشام الشيخ عبد القادر الأرنؤوط فأخبرني أنه ليس للأبدال عدد محدد وإنما لا يعلم عددهم إلا الله.

و أخرج أحمد أيضاً:

أَنَّ أَبَا ذِرَّ الْعِفَارِيَّ كَانَ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَإِذَا فَرَغَ مِنْ حِدْمَتِهِ أَوَى إِلَى الْمَسْجِدِ فَكَانَ هُوَ بَيْهُ يَضْطَجِعُ فِيهِ فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ الْمَسْجِدَ لَيْلَةً فَوَجَدَ أَبَا ذِرَّ نَائِمًا مُنْجَدِلًا فِي الْمَسْجِدِ فَنَكَتَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ بِرِجْلِهِ حَتَّى اسْتَوَى جَالِسًا فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ أَلَا أَرَاكَ نَائِمًا قَالَ أَبُو ذِرَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَيْنَ أَنَّمُ هَلْ لِي مِنْ بَيْتٍ غَيْرُهُ فَجَلَسَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ فَقَالَ لَهُ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا أَخْرَجْتُكُمْ مِنْهُ قَالَ إِذْنُ الْحَقِّ

بِالشَّامِ فَإِنَّ الشَّامَ أَرْضُ الْهِجْرَةِ وَأَرْضُ الْمَحْسِرِ وَأَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ فَأَكُونُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِهَا قَالَ لَهُ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا أَخْرَجْتُكَ مِنَ الشَّامَ قَالَ إِذْنْ أَرْجِعُ إِلَيْهِ فَيَكُونُ هُوَ بَيْتِي وَمَنْزِلِي قَالَ لَهُ كَيْفَ أَنْتَ إِذَا أَخْرَجْتُكَ مِنْهُ الثَّانِيَةَ قَالَ إِذْنْ أَخْذَ سَيْفِي فَأُقَاتِلَ عَنِي حَتَّى أَمُوتَ قَالَ فَكَثَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَبَتَهُ بَيْدِهِ قَالَ أَذْلُكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ قَالَ بَلَى يَا بَيِّنَ أَنْتَ وَأَمِّي يَا بَنِي اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَنَقَّادُهُمْ حَيْثُ قَادُوكَ وَتَتَسَاقُهُمْ حَيْثُ سَاقُوكَ حَتَّى تَقَانِي وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ.

[الشام أرض المحشر والمنشر: أي البقعة التي يجمع الناس فيها إلى الحساب، وينشرون من قبورهم ثم يساقون إليها، وخصت بذلك لأنها الأرض التي قال الله فيها {باركنا فيها للعالمين}، وأكثر الأنبياء بعثوا منها فانتشرت في العالمين شرائعهم، فناسب كونها أرض المحشر والمنشر]

عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما أنا نائم رأيت عمود الكتاب احتمل من تحت رأسي فظننت أنه مذهب به فأتبعته بصرى فعمد به إلى الشام ألا وإن الإيمان - حين تقع الفتنة - بالشام.
رواه أحمد و الطبراني و رجال أحمد رجال الصحيح.

و قد حض رسول الله (ص) أصحابه على الهجرة للشام رغم علمه بكراهتهم للسكن بها لأن العرب كانت تألف الزراعة و تحب الرعي، و الشام أرض زراعة و صناعة فكان مما قال:

عليك بالشام؛ هل تدرؤن ما يقول الله؟ يا شام! يدي عليك، يا شام! أنت صفوتي من بلادي، أدخل فيك خيرتي من عبادي، أنت سيف نقمتي و سوط عذابي، أنت الأندر و إليك المحشر، و رأيت ليلة أسرى بي عموداً أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة؛ قلت: ما تحملون؟ قالوا: عمود الإسلام، أمرنا أن نضعه بالشام، و بينما أنا نائم رأيت كتاباً اختلس من تحت وسادتي فظننت أن الله تخلى من أهل الأرض فأتبعته بصرى فإذا هو نور ساطع بين يدي حتى وضع بالشام، فمن أبي أن يلحق بالشام فليلحق بي منه [أي بلاد اليمن] و ليسق من غدره، فإن الله قد تكفل لي بالشام و أهله.

إنها ستفتح الشام فعليكم بمدينة يقال لها دمشق، فإنها خير مدائن الشام و هي مقيل المسلمين من الملاحم، و فسطاط المسلمين بأرض فيها يقال لها الغوطة [الغوطة هي البساتين المحيطة بدمشق]، و معقلهم من الدجال بيت المقدس، و معقلهم من ياجوج و مأجوج الطور.

ويقول علي (ر) لشيشه من أهل العراق: و الله! لوددت لو أني أقدر أن أصرفكم صرف الدينار بالدرهم عشرة منكم برجل من أهل الشام! فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين! أنا و إياك كما قال الأعشى:

علقتها عرضاً و علقت رجلاً * غيري و علق أخرى غيرها الرجل
و أنت أهلاً الرجل علقنا بحبك و علقت أنت بأهل الشام و علق أهل الشام بمعاوية.

المصدر: رابطة أدباء الشام

المصادر: